سوداء وفي طرفها مشحة بيضاء. الجرح الغائر ينبض، والسّاقان طويلتان جرداوان، أخي الأوسط يعد الحقيبة وأمّي بجانبه تبكي وتمسح دمعها وتسرع خارج الغرفة (تلك عادتها عندما تودّع واحداً منّا.. خاصّة نحن الذّكور... تظلّ تبكي وتبكي طول اللّيل في فراشها ولا تنام حتّى يطلع الضّوء) سيسافر إلى أمريكا قالت أختي الصّغيرة: «رح يكمّل دراسته». الرّيشات في يدي والدّم الجافّ، لكنّ الجسم النّاحل الهضيم تحامل على جرحه الغائر، تحامل على يدي قليلاً، نفض الجناحين وكأنّما كاد من قبل أن يفقد الأمل، وحيداً على الشّرفة، عيناي تفيضان، والضّوء الباقي في الأفق يسيل أحمر قانياً.

الأردن

القنـــاع

وليد زهدي

صباحاً أفاق. نزل من «عليّته» مغمضاً. تمطّى. نظر باتّجاه الدّفء المنبعث من الشرق. تفتّحت عيناه. شاهد كسوفاً بنفسجياً غيّب نصف رأسه. أُغلقتْ عيناه. تمتم متسائلاً:

ـ أشاهدتُ شمساً؟!

أسترجع حلماً لحوحاً لم يتكدَّسْ فوقَه الواقع. قال متذكّراً:

ـ هي الشّمس العاكسة في الحلم!

تحسَّسَ رقبته. وجدها منتصبة تحمل الرّأس.

صاح: «شام»؟.. «شام»؟

تلقّى صوتاً! ـ «مياو...» من بعيد.

لمح «لون» يركض لاعباً خلفَ شام، والشّعر المسترسل أمام عينيه، يبطئ جريَه. يهرّ بصوت مخنَّث. يتوقّف الكلب فجأة. يترصَّد. يخطف شيئاً كان يلعب به «شام». يُسرع ويدفع هذا الشّيء إليه. محص الشيء:

«قناع»؟!

لمسه وأعاد..:

«ناعم طريّ كبشرة آدمية!».

وضع القناع بمواجهته تماماً. خيّل إليه أنه يتكلّم. انخشَّ فيه مرتعشاً: «مريع!».

وكد في حدقتيه:

«يتغامزان؟!».

قذفه بعيداً. عَلِق بأغصان شجرة جمّيز معمّرة تتوسّط بستانه. تصوَّر أنّه يقهقه. قال:

«لم أرَ قناعاً مثله في حياتي قط! ماذا يشبه؟... ماذا يشبه؟. وجدتها: شيطان فاوست»!

استدعى «شام». لبّى مجيباً. تفرّس فيه. شاهده يلبس القناع. أغمض. فتّح. تذكّر أن بعضاً من هذه المقاطع كانت متضمنة «حلم ليلة البارحة». ماله وللأحلام..؟!

الصيف قتّال. فليذهب إلى السّباحة.. إلى أين؟ إلى أين يا «سديم»؟.

ـ «الشيراتون».

ـ ولكن مع من؟

وضع معادلة سريعة:

«سوزي» تحت تصرّفها سيّارة ذات لوحة خضراء. هي تخطّط لإيقاعه، وفي حسابها البستان.

هناك تعرّى. مرَّ بأصابع كفّيه على صدره الفتيّ. هفّت نفسه إليها عندما ارتسمت في البكيني. زرع في مخيّلته: «سوزي» ثائرة الثديين. بدلال رآها تلوّح إلى فتاتين في الجانب الآخر من حوض السّباحة، تحومان حول شيخ أو أمير. شعر بدفء الصّباح الرّطب. أجسام المراهقات البرونزية كانت تعكس أحلامه. وقف على طرف الحوض.

تفرّس في الماء. أشعّة الشّمس خطفت بصره. اهتزّ سطحُ الحوض تحت أشعّة شمس بنفسجية. انتفض هرُّه «شام» من داخل الحوض كمارد وعليه القناع. تراجع للخلف مترنّحاً. «سوزي» تصيح:

«ما بك؟. أخِفتَ الماءَ البارد؟!».

أعاد توازنه.. فرك عينيه.. أخذ وضعيّة الغطس. صوت يناديه:

ـ «سديم».. «سديم»!.

ينكمش عن قذف نفسه. عرف المنادي. هو السمسار.. يتقدّم منه. نحّاه جانباً. أسرّ إليه بأمر، وهو يشير إلى الطّرف الآخر من حوض السّباحة حيث يجلس... اختلس نظرةً سريعة. لمح مظلّاتٍ ثلاثاً متقاربة، تحتها شيخ أو أمير بلحية مرسومة بعناية تتركّز تحت الذقن والشّفة السّفلى، وتخفي سحنته نظّاراتٌ أرجوانيّةٌ عاكسةٌ وعريضة، وقد استلقت على جسمه عباءة حريرية بيضاء، فوق رداء

بحري متميّز، وأمامه سلّة من قش مليئة بالفواكه الطّازجة. وميّز بقربه فتاتَيْ تلويحة «سوزي». لحظ قيامهما على خدمته... ارتسم في ذهنه مربع زواياه: سوزي، الفتاتان، الشيخ، السمسار.. يحاول «سديم» التملّص:

ـ بالأخضر!

السّمسار..

بالأخضر.

يتقدّم الاثنان ـ بعد ذكر أرقام ـ باتّجاه اللحية الأميرية. انتزعت فتاتا التّلويحة وعناصر الخدمة المبادرة بالترحيب. افترّت الشفتان فوق اللحية الأميرية عن ابتسامة صفراء أعقبها ترحيبٌ من علٍ. أُشير بالضيافة. سؤال وحيد طُرح من ذي اللحية الأميرية:

ـ ... الوريث الوحيد؟

في هذه اللحظة بالذّات لم يدرك «سديم» كيف استنبط الشبه بين اللّحية الأميرية والقناع..

السّمسار بكلّ تدليس، يخرج من محفظته حصرَ إرث شرعيّاً، ويضعه برفق في مجال ناظري اللحية الأميرية، وهو يقول:

ـ مؤكّد يا سموّ الشيخ. مؤكّد!.

واغتنم فرصة لعرض المعلومات، فأبرز بيان قيد عقاريّ ومخططاً مساحياً للبستان، شارحاً بكلّ ترغيب:

ـ أمام مكتبة الأسد. المالكي طبعاً!

اختزلت اللحيةُ الأميريةُ الشرحَ:

ـ كم؟

في مخيلة «سديم» قفز أرنب مقنّع على القط «شام»، فواجهه مشتبكاً معه «بقناع فاوست» ذاته. وسرعان ما استحضر رقماً من الخيال، تعجيزاً:

ـ مائة «أرنب أخضر».

تدخل السمسار مصفّراً:

ـ رقم خيالي!

أكمل «سديم»:

ـ لأفضل موقع في الوطن.

بهت عندما تلقّى بسمةَ استعلاءٍ من فوق اللحية الأميرية، تبعتها كلمة واحدة:

ـ اتفقنا!

في جوّ ذاهل أُشرعت كؤوسُ الأناناس لتبادل نخب الاتفاق. بالإشارة أُفْهِمَ السمسار بضرورة تهيئة العقد عن طريق محام أُسْمِيَ، مع الأمر بإنجاز معاملة الفراغ بسرعة. وجّهت الدّعوة إلى «سديم» وصديقته:

ـ إنّنا بالانتظار على الغداء.

«سديم». لم يدرِ كيف خرج من «الشيراتون» برفقة السّمسار. لمح «سوزي» تتبادل القبلات مع الفتاتين وقد انضمت إلى المظلّات الثلاث. وجد نفسه فجأة في سيارة «رولزويس» بنفسجية أخذت جماع خياله. سحرته، فلم يتمالك من إبداء مشاعر الإعجاب مع الرغبة الجامحة في الاستئثار:

«حقاً تستحق!».

من محفظة في الباب الأمامي للسيارة تناول «الكاتالوج». قَلَّبَهُ بشوق جامح للاطلاع: لون بنفسجي مورنش يغطي صفيحاً مغلّفاً بالنّحاس، تصميم انسيابي فاتن؛ زجاج دخاني «مُجَلْتَن» مقاوم للرّصاص ماصٌّ للأشعّة؛ تابلوه فاخر مجهّز بمخزن معلومات الكترونية يقدّم إرشادات للوحة مضيئة تخبر عن العوائق الآتية، والازدحام في الشّوارع غير المنظورة، وتستقصي الضباب والجليد عن بعد كبير، وتبحث عن الاتّجاه الأنسب، وتحدّد إمكانيّة التّجاوز؛ وعقل الكتروني، لتلافي الاصطدام، وللتّحكّم القيادي واستكشاف الأخطاء والأعطال؛ محطة بثّ والتقاط لاسلكي؛ «ستريو أوتوريفرس»؛ تلفزيون ملوّن خماسي الأنظمة، يعمل ويوجَّه بواسطة «ريموت كونترول»؛ فيديو متطوّر مع جهاز توجيه عن بعد؛ عدّاد سرعة تحذيري مرقّم حتّى مائتي ميل ومؤشّران للوقود والبطّارية؛ عجلات «توبلس راديال» ذاتيّة الانفراج حسب متطلّبات السّرعة؛ منفاخ كهربائي يعمل أثناء السّير؛ محرّك عنفي «توربيني» ثلاثي الطّور، بقوّة خمسين حصاناً بخارياً واثني عشر «سلندر»، مصنوع من مواد مقاومة للتآكل؛ جهاز إطلاق للكراسي مع الرّكاب في الحالات الخطرة مرتبطة بحاسوب الكتروني للاحتمالات؛ برّاد تعليبي مجهّز للوجبات تخرج منه طاولة صغيرة؛ فرش فاره؛ توازن وسيطرة بمختلف السرعات والمسالك...

لمسة زرّ وتنفتح الدّواليبُ للثّبات في السّرعات العالية. لمسة أخرى وينفتح السقف. ولمسة ثالثة لترتفع أو تنخفض السيارة بجهاز هيدروليكي عدا عن أجهزة فتح البلور وإقفاله وسحبه وتسخينه وتنويمه وأجهزة قياس الارتفاعات والانحدارات ومعدلات التّدفئة والتبريد واستشراف أحوال الطّقس والطّوارئ وحساب نِسَب الأمان.

سأل السّائق:

ـ أهي سورية؟

أجاب:

ـ مخصّصة للخدمة في سورية.

حمى البنفسج المتطوّر سلبتْ لبَّ «سديم». صاح في السّائق دون وعي:

ـ لو سمحت عُدْ بنا إلى «الشيراتون»!

ـ أنسيت شيئاً، سيدي؟

ـ أريد التكلّم مع سموّ الشيخ.

سأله السمسار:

ـ بأي شأن؟

ـ «الرولزرويس».. هي الشّرط الأوّل لإتمام البيع.

ـ ولكنّ الاتفاق قد تمّ.

ـ شفوياً، ودون السيّارة أرجع عنه.

وفجأة تملّكه إحساسٌ عميق، ولم يدرك مصدره، إلا أنّه اقترن بالقناع، وسيطر على كيانه قارعاً جرسَ الإنذار بأنَّ حياته مرتبطة بشكلٍ أو بآخر «بالرولزرويس»، وأن لا معنى لوجوده دونها، وقدره مرتبطٌ بها.

استدارت السيارةُ عائدة. وعن بعد، بعد أن انكشف مجال المسبح، قال السمسار:

ـ هناك ضيوف في مجلس سموّه. فلنؤجِّلْ؟

قال «سديم»:

ـ ذلك لا يمنع من عرض الشرط.

مال السمسار على أذن «سديم» وأسرَّ إليه، رغم عدم وجود من يسمعهما:

ـ لكنّ سعادة السّفير..

وتابع بعد أن نهز «سديم» كتفيه للأعلى دليل عدم اكتراث.

ـ .. سفير دولة عظمى.

فوجئت اللحيةُ الأميريّة بالرّجوع. التقط «سديم» إيماءة رفيعة خرجت تجاهه بعد أن مرّت على الضيف السّفير. شعر أنّه المقصود بها وأنّه أصبح معروفاً من السّفير. واستكنه بحدس استشعاري وجود روابط ما... ففقز القناع بصيغة مجسدة محتلاً ذهنه كدلالة صارخة للتّعبير عن هذا الرّابط. ابتسم من الدّاخل. تقدّم لا يلوي..

سألت اللحيةُ الأميرية بعد أن استغربت الرجوع المبكر:

ـ ما الأمر؟

قال السمسار بحنكة مختصرة تفصح بالإشارة:

ـ «الرولزرويس»!

اختصرت اللحيةُ أية إضافات أخرى بحضور الضيف:

ـ هي له هدية.

حمى منتشية انتشرت في دماء «سديم». لم يصدق طوفان النعمة الهابطة التي غمرته فجأة. ضمّته «سوزي» مقدّمةً له التّهاني. أراد الاندفاع لتجربة السيّارة، فهمستْ في أذنه بفكرة اقتنع بها، فسرحت معه إلى بار الفندق. شربا كأسين من الجامايكا مع الأحلام المحلّقة.

لأوّل مرّة يشاهدها تذوب رقةً به..

آجرت اتّصالاً هاتفياً. سمعها بوضوح تردّد:

«مبروك بابا.. مبروك!».. وتناهى إلى سمعه جواب خافت:

ـ «الدفع في الخارج».

تحت المظلاّت الثلاث مُدَّت طاولة الغداء. كانت فيها الوردة الدمشقيّة الحمراء كقبلة حارة في وجنة مفروشة بزنبق أبيض. لأوّل مرّة يجلس مع أمير. شده بالخدمات المتميّزة والعناية الخاصّة الّتي تحيط بها. حملته الأحلام إلى البعيد البعيد، إلى سدّة الإمارة. وعندما هبط المساء نحاسياً بألوان شفقية على سوق العبيد، كان «سديم» يطب على مركبة أحلامه، وفيها محفظة سوداء «سامسونايت» يرقد فيها مائة أرنب أخضر.

بعد أن وقّع على العقد، كانت مفاتيح «الرولزرويس» هي مفاتيح الجنّة. خرج من فندق الحظّ وسط وداعات وانحناءات لم يحلم بها. أدار مفتاح جنته متلهّفاً، بعد أن تخلّص من حوّائه.. دخلها آمناً.. وضع المحفظة السّوداء في المقعد الأمامي إلى جانبه. قرأ سريعاً إشارات اللّوحة الالكترونية. مسّ زراً فانكشف السقف. مس لوحة صغيرة فانخفضت السّيارة هيدروليكياً. برَّم عتلة صغيرة فنوّم الزّجاج الأمامي. لمس قاطعاً مناراً فانفرجت العجلات متباعدة مائلة للخارج قليلاً. شغل المحرك. انطلقت «الرولزرويس» بسرعة كخطف سنونوة. وصل على جناح فرح السنونو إلى البستان. عبر شارع المالكي بلمح بصر. نادى قطه:

ـ «شام.. شام».

كانت رقبة القط قد علقت بمطاط القناع. ماء مستنجداً.. ثم هرَّ مسرعاً باتّجاه الصوت. قفز إلى السيارة. جلس في المقعد الأمامي. نزع «سديم» القناع من رقبته. شعر أنه يلمس بشرة آدمية. اقشعرّ بدنه. وقف شعر جلده. إلى ذهنه قفزت فكرة التذكّر. شيء ما في داخله كان يناديه للبس القناع، ففعل.. انطلق في كلّ الشوارع: من «المالكي» و «أبو رمانة» صعوداً إلى «المهاجرين» ضمن الشّوارع المتشابكة المتّصلة المتعرّجة.. كان هناك دافع للتّملي من شوارع دمشق الآسرة وهو يتنقل في مركب فردوسي. كان يمرّ على أصدقائه وصديقاته واحداً فواحدة. يفتّش عنهم في شوارعهم وأزقّتهم وحاراتهم. وحين يشاهد أحدهم، يستعمل المكابح بقسوة عندما يقترب منه. فتشحط السيارة، ويُسمع صوت زعيق مرعب من سحج الدواليب على أسفلت الشارع. فإذا ما التفت هذا الصديق إلى الصوت مرتعباً، كشف «سديم» القناعَ، وقهقهه، مقلعاً إقلاعاً فجائياً بعنف، وهذا ما يدير مؤخّرة السيارة ساحجةً دواليبها بصوت زعيق حادّ يزيح القلوب. ومن أجل إثارة الرّعب، كان يمشي دونَ أنوار، رغم هبوط الظّلام، ولا يستعمل أنواره إلاّ في الإدهاش وإحداث الصدمة.. لم يتكلّم مع أيّ صديق وإنّما كان يخفّف وطء المفاجأة عن الصديقات. كان مسعوراً في مداهماته وكأن مساً من الشيطان قد لبسه. كان يحسّ أنه يطير في مركبة فضائية بنفسجية حالمة، تموت كالشّفق في الظلام، تخطف تحت انعكاسات «الفلورسنت» والأضواء الكشّافة وعناقيد الرّؤوس المضاءة في الشّوارع الفخمة. والشّيء الآخر الّذي ظلّ يلهبه، ولم يستوعبه أبداً، أن «شام» كان يجلس حارساً على مائة أرنب أخضر.. أفلت من عقله. لم يعد يسيطر على أحاسيسه ورغباته. سرح في كلّ اتجاه. سرى في كُلّ شارع. كان يمارس «كارنفالاً» مجنوناً من نوع متميز، هو المتنكّر الوحيد فيه. مسرحه شوارع العاصمة الفسيحة في ليل صيفي حالم. وصل إلى ذروة النّشوة والانفلات: إقلاع، التفاف، انسياب، تشحيط، تشفيط، دوران، انزلاق، امتداد، رجوع، تسمّر، تسلّق، تدرّج، نزول، طلوع، توقف، تسارع، تمادٍ، طيران... قهقهات جنونية.. لم يَبقَ شارع، ضيّق أو واسع، في الحيّ إلاّ دخله. حتّى الأزقّة والأرصفة والمدرّجات والحدائق، وبعض الأمكنة الضيّقة والترابيّة سار فيها مغامراً حتى أتخم في تماديه. كان دمه يفور كأنه في معركة شيطانية

دون أعداء، فلم يشعر بالنّعاس. حرّب كلّ مزايا السيارة ولامس كل ما فيها من حركات. في توقه التمعت تجربةٌ أخيرة أراد تحقيقها: «المدى الأقصى للسّرعة»؟ لم يجرّبْها بعد... في ذهنه امتدّ مطار وفُرِشَتْ مدارج. قال:

ـ «أوتوستراد المرة الحقل الأمثل للتّجربة». تخيّل حركة السّير الخفيفة هناك في منتصف الليل. اشتعلت في خياله أضواء متغامزة، صفراء حمراء، خضراء بيضاء، يسبح بها «الأوتوستراد»، تحدياً مداعبا شرطة المرور ودرّاحاتها الناريّة. خاطب هرّه:

ـ سمعت أنّ جسر تشرين سالك، وتمّ افتتاح قصر تشرين، هل تدري يا شام؟!

وربّتَ على مؤخّرة رأسه، ماسحاً وبرهُ الشاميَّ الطويل حتّى مؤخّرة مقعده.

ارتطمت يده ببيت الأرانب. وصل إلى سمعه مع هدير المحرّك بعد فتح كافّة طاقة «السِلِنْدرات»:

ـ «مياو».

اختطف نظرة سريعة من زاوية عينه إلى «شام»، وزاد في سرعته عبر مداخل «المالكي» القريبة الصّاعدة من أمام «مشفى الشّامي». لحظ وجودَ إسعاف في تنهيدته الأخيرة. ماء قطُّهُ «شام» مواء طويلاً مقلوباً. لولب صاعداً في سفح قاسيون، ثمّ انهمر إلى منحدر جسر تشرين حيث يتّصل ببداءة الجسر. تسارعت السيّارة أكثر فأكثر منسربة في المنحدر. جذبته أضواء قصر تشرين السّاطعة الكشّافة. لأوّل مرّة يرى القصر بعد أن اكتمل وافتتح. أعجبته مدارجُ العشب المتعرّشة على قاسيون في حدائق القصر. فتعلق بصرُه بالمنظر «البانورامي». خيّل إليه أنّه يرى الشّعب يتدافع باتّجاه القصر. أطلقت اللّوحةُ الإلكترونية في السيّارة صوت إنذار. ماء «شام» مواءً مرعباً. شخر ونخر وانتفض نابضاً في وجه «سديم». حينئذ أيقن أنّ «شيطان فاوست» قد تجلّى متجسّداً أمامه في قطّه الشّامي، لم يشعر إلاّ ورقبته تُحَزُّ بخيطٍ حاد. انفصل الرّأس عن الجسد. يتنبّه حرس القصر فلا يبدون حراكاً. يسقط الرّأس مخمّراً بالقناع. القناع يقهقه بصوت شيطاني مرعب، بينما زعقت المركبةُ من جرّاء ارتطام، ثمّ هوت تحت الجسر. وتناثرت الأرانبُ الخضراء يسفّها الهواء في كل اتّجاه. وسرعان ما قفز «شام» إلى الرّأس المفصول فانتزع القناع وأخذ يموء مواء شيطانياً مفزعاً، بينما دخل مطاط القناع في رقبته.

وفي مطلع النّهار، ضحكت شمسٌ بيضاء وتجلّى قصر. فتدحرج طفلان يلبسان أسمالاً بالية، من موقع بين البساتين في سفح «قاسيون» إلى تحت الجسر، وهما يختلسان النّظر إلى القصر من بعيد. أخذا يبحثان باهتمام عن نصفيْ علبة «لمّاع الأحذية»، كانا قد ربطاهما في طرفي خيط من «النايلون» نصباه وثبتاه في عرض الجسر، وحين عثرا على النّصفين قال الطفل الأوّل للثاني عبر هاتفهما:

ـ ألو..!

فلم يردَّ الطفلُ الآخر...

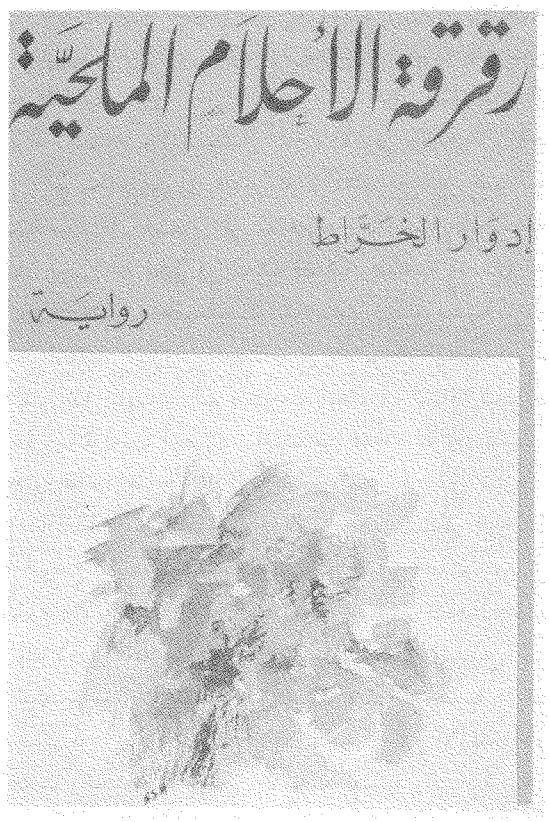

يا خبر!... كلّ هذه الصرخات!...

هذه اللوعات والاندلاعات التي لا ضابط لها ـ هل فيها أيضاً خداعٌ مُحْرِقٌ للنفس؟ وأكاذيب هي الصدق بذاته ـ، كيف أمكن أن تحدث؟ كيف أمكن أن تُكْتَب؟

هل اندثر كاتب هذه اليوميّات، ذلك الصبيّ الطفل الكهل، في السّادسة عشرة من عمره أم في الستّين؟ أم لعلّه رابض في داخلي، عميقاً، لا يريد أن ينمو ولا أن ينضج، صبيٌّ شيخٌ رومانتيكي جدّاً، خائفٌ ومستهترٌ بنفسه وبالعالم معاً.

كلّ هذه العاطفيّة والسذاجة ولذعة لذّة تعذيب الذّات!

أظنّ أن بَعْثَ وحوش كتابةٍ قديمة ـ كأنّها من زواحف ما قبل التاريخ ـ تأكيدٌ لها، حتّى مع إنكارها. بل كأنّه ترحيبٌ بها بعد طول هجوع.

دار الاداب